أقرانهم ومجايليهم في العالم العربي، وأن يكون هذا الحضور مسألة إبداعية غير مرتهنة بالكامل لجنسية الكاتب السوداني أو هويته السردية. داخل هذه التساؤلات والملاحظات، فكرنا بإنجاز هذا الملف عن أصوات سردية سودانية، على أمل أن ينجح جمع عدد من هذه الأصوات في لحظة واحدة على قراءة متجاورة ومقارنة لنصوصهم، وما يمكن أن تبثّه من انطباعات حول موضوعاتها ومناخاتها وحساسياتها الأسلوبية والسردية. نقرأ هذه النصوص فنكتشف أن الطقس الحكائي لا يزال حاضراً بقوة، وهو انطباع سريع وأولي طبعاً، ولكنه يشير إلى ندرة التقنيات السردية الحديثة في صياغة هذه النصوص التي تبدو مدينةً لما يسميه حمور زيادة في شهادته بـ «الوَنَس»، والترجمة الأوسع للكلمة هي «الإمتاع والمؤانسة» بحسب عنوان كتاب أبي حيان التوحيدي. وسنرى أن هذه «المؤانسة» حاضرة في أغلب نصوص هذا الملف، وأن أصحاب هذه النصوص يستثمرون مناخاتهم القبلية والإفريقية، وعاداتهم ويومياتهم وطقوسهم، في تخصيب سردياتهم وحكاياتهم بأنواع من السحر والدهشة والغرابة، إلى درجة تبدو فيها هذه المناخات كافية وحدها لتكون بطلة هذه النصوص، وأن تكون التأويل الأفضل لطموحاتهم الأسلوبية أيضاً. بقي أن نشير أخيراً إلى الصعوبات التي رافقت جمع هذه النصوص وصعوبة التواصل مع بعض أصحابها في الظروف السياسية والأمنية والإلكترونية السيئة في السودان شمالاً وجنوباً، وينبغي أن نذكر أن الملف مدينٌ في جمع مواده للزميل أحمد مجدي همام، والروائية السودانية رانيا مأمون، والشاعرة الجنوب سودانية نيالاو حسن أيوك:

حسين بن حمزة

ـم البابايا

ربما عبرتْ قربي، ربما اصطدمتْ بي أثناء عبورها، ربما ودَّعت، لوَّحت أو ابتسمتْ، لكني رغم قربي ما رأيتُها قطّ.

* روائية وكاتبة سودانية صدر لها روايتان: «فلاش أخضر»، «ابن الشمس»، ومجموعة قصصية بعنوان «13 شهراً من إشراق الشمس».

رحيف البابايا

هشام آدم *

الحقيقة أنَّه لم يكن بمقدوره تجاوز محنته الصِّحيَّة إلا عبر ارتشاف عصارة أوراق البابايا، التي كانت «آبا» تُقطِّرها له من فمها، وصلواتها أمام حطب البروسوبس المحترق، ولم تزل صورتها محفورةً بعنايةٍ على كهف ذاكرته، مع بقايا وجوهٍ وتماثيلَ نصفيَّةٍ لرجال ونساء القرية، ودقَّات الطُّبول الأفريقيَّة، في طقس وثني شديد الخصوصيَّة، واحتفالات تُجَّار القوافل العائدين من واحات جغبوب، وصيَّادي الفيلة، وعُمَّال مناجم الذَّهب البائسين، وأصوات ضحكاتهم المتعالية، التي كانت تأتيه كصرخات أرواحٍ شريرةٍ حبيسة قوارير سُليمان العتيقة.

استيقظ «دوتسي» وقد تدلت «آبا» الفاتنة من سقف ذاكرته، كتمائم كاهن القرية المسحورة، بسُمرتها الزِّنجيَّة الدَّاكنة، وعينيها الحمراوين، وقرطيها الضَّخمين كأوراق زهرة الليلك، وشعرها الذي كأغصان شجرة البُنّ. تدلت في رشاقة بنات آوى، ووداعة إله الحصاد، نحيلةً كأوراق شجرة الطُّرفاء، وجميلةً كثمرة دُرَّاق، لتطبع قبلتها الأفريقيَّة السَّاخنة على جبينه الموشوم، هامسةً في أذنيه بسحرٍ أنثوي يألفه: «سنلتقي قريباً... أعدك!».

لم يكن في حُسبانه أنَّه سوف يستغرق كلَّ ذلك الوقت ليستوعب ما يجري، وكأنَّه عرضٌ سينمائيٌ استثنائيٌ لن يتكرر. كان الصَّوت واضحاً هذه المرة، إلى الحد الذي جعله يلتفت وراءه مُباشرةً، وكان بوسعه أن يتذوَّق مرارة رحيق البابايا في فمه. لم تكن ككل المرَّات السَّابقة، فقد كان يشعر بوجودها في الأرجاء. جال ببصره في أرجاء غرفته سيئة التَّهوية، وهو يُسابق أنفاسه التي كانت تعوي في صدره كأصوات عجلات قطارٍ بُخاري قديم.

كان واضحاً بجلاء أنَّه لم يستطع نسيان نكساته الكُبرى، كما كان يُخطط، أو ربما أنَّه تمنَّى أن يستيقظ ذات يوم ليكتشف أنَّه قد عاد بلا ذاكرةٍ مُزعجةٍ أو تواريخ. وكل صباح؛ عندما يكتشف أنَّه لم ينس شيئاً من تاريخه، يُردد في يأس: «حياة البائس كنوم الكفيف!» ثم يتوَّجه - كآلةٍ تعرف مسارها اليومي - إلى مصنع الدُّونات، حيث يعمل كحارس أمن. لم يشأ طوال سنوات اغترابه أن يستشعر انقسامه البيِّن، ذلك الذي جعله أشبه بضواري سيرك زاباتا، التي نسيت تواريخ غرائزها الفطريَّة، وأكتفت بكونها حيواناتٍ للفُرجة وإسعاد الأطفال، وإيواء عشيقين مُتخاصمين.

لاحقته صورة «آبا» وهي تُقطِّر في فمه عُصارة البابايا، كلبوةٍ تلعق جراح ليثها في امتنان. تخيَّل كيف يُمكن أن تزدري منظره المُحتقر، بملابسه النَّظيفة، وقُبَّعته التي تُخفي شعره المجعَّد، وحذاءه الذي من جلد البافلو، واقفاً على مدخل مصنع الدُّونات الفرنسيَّة، مُراقباً حركة سيارات البيض الفارهة، في وضاعةٍ هامشيَّةٍ؛ كجوكر نوادي الرِّكبي، الذي بلا فائدةٍ تُذكر؛ وقدَّر أنَّه لم يكن يستحقها.

أخذته عُزلته المتناهية - بلا هدى وبلا هوادة - إلى مُستنقعات بصيرته الضَّحلة، حيث لا يستشعر للحياة طعماً، أو تغزوه رائحة الدُّونات الفرنسيَّة، وتصبغ كل شيءٍ في طريقها بطعم الطَّحين الفاخر، والسُّكَّر الصِّناعي المسحون بعناية، باردةً كليالي الكريسماس، ولزجةً كأنف كلب بحر، إلَّا مرارة عُصارة البابايا التي تُصر أن تظلَّ طازجةً على الدَّوام. غارقاً في متاهته الكبرى بين ذكريات بدأت تخبو مؤخراً، وأحلام تفقد نكهتها كل يوم.

عضَّ أرنبة ندمه كثيراً حتى أدمنها أو كاد، لا سيما حينما يُخاطبه أحد البيض بنبرةٍ مُتعالية: «كُن كمنظرك المُوحي بالشَّراسة، ولا تتعاطف مع المتسللين!» دون أن يتمكن من ذر بُصاقه المُرّ على وجهه. كانت السَّنوات تلتف حول عنقه كأغصان شجرة لبلاب فتيَّةٍ، تُفقده بوصلته الخلاسيَّة، وتعبث بجينات دمه الحارة، تُبعده أكثر فأكثر عن حقيقته ومُستقبله.

ذكريات الهجرة السِّريَّة المعطونة بالمآسي، والآيات السَّوداء لسبعةٍ وثلاثين شاباً زنجياً، انتشلوا أقدامهم الحافية من الطِّين ليغرسوها في الأسفلت، مُحمَّلين بالوعود والأحلام التي لها أجنحة البيجاسيوس الأسطوريَّة. لم يتبق منهم سوى أربعة فقط، تفرَّقوا أوان وصولهم. ذكرياتٌ ظلَّت تُؤرقه طويلاً، قبل أن يتماثل للنسيان تحت وطأة الرَّأسمال، وهيلمان الفاقة والعوز الذي لا يرحم. أضاع فيها حذاءه، وصوره التذكاريَّة، وتميمة الحظ التي كان يُعلِّقها على ذراعه، وكبرياءه أخيراً.

«سنلتقي قريباً.. أعدك!».

ظلت تلك الكلمات القديمة، المحفورة على جدران ذاكرته كرسوم بدائيةٍ، تُومض أمام مسامعه كل ليلةٍ، وكأنَّه يسمعها للمرَّة الأولى، كناموسٍ إلهي حميم، أو كنداءات أرواحٍ خيِّرةٍ، ذواتُ ضمائر لا تنام. قرَّر ليلتها أنَّ الحياة أضيَق من حُنجرة مُحتضر، وعزم على العودة إلى بلاده غير آبهٍ بشيء: أرتال السَّيارات الفارهة عند مدخل مصنع الدُّونات الفرنسيَّة، وتميمة الحظ التي كان يُعلِّقها على ذراعه، اليونيفورم المنتظر على حبل حلوى، نقود، قصب سُكّر، فول، تسالي، يخصني بالحنان، القرب منه، كل شيء وعندما يحتج أخوتي يتحجَّج بأني آخر العنقود.

بعد عودتي من المدرسة كنتُ أسأل أمي عن الغداء فيرد عليّ هو:

. ادخلي المطبخ، تناولي طعامك، هذا بيتك، هل تخجلين؟!

يعلن دوماً عن آماله الكبرى فيَّ: ابنتي هذه أريدها طبيبة. يناديني دائماً بال دكتورة وكنتُ أطرب لهذا النداء. وبعد كل هذا الحنان عجزتُ عن تحقيق رغبته!

■■■

في انتظار الطبيب كنتُ أجلس قرب رأسه وهو ممدَّد على السرير. ألاحظ حبيبات من العرق على جبينه ورأسه الأصلع. أمسحها بيدي مجردة من أيّ منديل. يندِّي جبينه مرة أخرى أمسحه مرةً أخرى. يستمر في النَّدى وأواصل أنا في المسح بيدي العارية.

عندما حضر الطبيب وجدنا نحيط به، أمي تدلك قدميه المتشنجتين، أختي على الطرف الآخر من السرير تمسك بيده، أخي واقفاً ليس ببعيد وأنا على رأسه ماسحة جبينه باستمرار. يعاينه بدّقة وبطء.

أمي تنتبه لنظرات أبي. ربما أدركتْ ما كان يحدث، بدأتْ تردد الشهادتين. الطبيب لم يطلب منها الصَّمت، بل واصل قياس الضغط وفتح عينيه وقراءة نبضه.

أرى شفاه أبي تتحرك وتردد بعد أمي الشهادتين بصوتٍ خفيض يكاد لا يُسمع. ثم يغيب الصوت وتتباطأ حركة الشفاه.

في لحظةٍ فاصلة ندّى الجبينُ بغزارة. توقفت الشفاه عن الحركة ورفع الطبيب رأسه وعلى وجهه تعبيرٌ آسف.

لجهلي لم أكن أُدرك حتى تلك اللَّحظة بأني أمسحُ أثر تعرُّق خروج الرَّوح، ولم أدرِ أنها خرجتْ.